



الأديب و المَفَكِّرُ الرَّاجِلُ رَمَضانُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدُ

الشهرة
ما هي الطرق الموصلة إليها؟

جان دوتور، عضو الأكاديمية الفرنسية، وصاحب المقال الأسبوعي في مجلة " فرانس سوار " والمجلة الشهرية " استوار " كتب في هذه الأخيرة يقول:

" إنَّ المجد الباقي بعد وفاة الأديب يكاد يكون حصيلة نزوة من النزوات تماماً كما في أثناء حياته " .

وهذا صحيح إلى حد بعيد. فقد تمضي السنوات الطويلة على ظهور أدب رفيع وفكر غنيّ ثم لا يلتفت إليه أحد أبداً . حتى إذا كانت مصادفة غير مرتقبة خرج هذا الفكر أو ذلك الأدب من ظلمة الغياب إلى ضوء الحضور. والسبب قد لا تكون له أي علاقة بعظمة هذا الفكر أو أصالة ذلك الأدب.

أما السبب الذي دفع جان دوتور إلى تقرير ما قرره من أنّ مجد الأديب في حياته وبعد موته مرتبط بظهوره بنزوة من النزوات قد تعبر عنها بصدفة من الصدفة فهو عثوره على رأيين متناقضين حول خلود الأديب ومداه في المستقبل بعد وفاته.

أما الرأي الأول فقد عثر عليه عند الأديب الفرنسي المشهور، ستاندال، الذي يقول : " الأدب في حقيقته نوع من اليانصيب " جائزته الكبرى أن يبقى مقروءاً بعد وفاة صاحبه بثلاثين عاماً. ثم عثر على رأي لكاتب فرنسي آخر أوسع شهرة في عصره الذي هو القرن الثامن عشر. إنّه فولتير الذي يقول : " البقاء مكتوب لدانتي - الشاعر الملحمي - لأنّه قليلاً ما يقرأ . "

ويتابع دوتور موضحاً وجهة نظره فيقول : " من الأكثر تقليدية عند المجلس البلدي لمدينة باريس أنّ هذا المجلس لا يفتأ يغيّر في أسماء الشوارع . يكفي أن يغتال الموت شخصاً كسب في حياته شيئاً من الوجاهة لكي يعاد النظر في اسم شارع رئيسي أو زقاق صغير فيوضع اسم هذا الوجيه مكان الاسم القديم.

هكذا تصبح معارض باريس معرضاً لأحدث الصراعات البشرية بدلاً من أن تكون محقاً تاريخياً لكبار الرجال والنساء. والواقع أنّ المستشارين البلديين هم فئة من المتكبرين المغرورين . إنهم يتصوّرون أنّ لهم ذوقاً معصوماً من الخطأ، وأنّ لهم نظرة ثابتة ، وأنّ لهم أخيراً الرأي الذي يجب أن يهيمن على الأجيال الطالعة.

نابليون بعيداً وراء بول بيرت

ويتابع دوتور قائلاً : " يبدو لي أنّ الحكمة تقضي بانتظار خمسين عاماً بعد وفاة الكتاب والفنانين لمنحهم مكاناً في قطعة من الأرض المسفلتة. وخمسون عاماً ليست فترة طويلة ، إنّها الزمن الكافي لأي نتاج ليصبح ملكاً للرأي العام.

كما أنّ في وسع رجال الدولة والسياسيين أن ينتظروا هم أيضاً نصف قرن. فبفضل هذه المهلة من التفكير لا ينتظر أن يطلق اسم بول بيرت مثلاً على شارع من الشوارع. فأني رجل محظوظ يكون هذا الـ " بول بيرت " حتى نفكر فيه ! لا أحد يعرف الآن أنّ هذا الإنسان ولد عام ١٨٣٣ م وأنّه توفي بمرض الدوسنطاريا عام ١٨٨٦ م ، وأنّه كان محافظاً في شمال فرنسا ثم نائباً عن دائرة " ايون " ثم وزيراً للحربية العامة والطقوس الدينية، وأخيراً المقيم العام في بلاد أنام وفي بلاد تونكين. وفي ظلّي أنّه لا يحظى بسطر واحد في كتب التاريخ المتداولة ولكن اسمه بفضل حماسة المستشارين البلديين عام ١٨٨٦ م فينتشر ويمتد فوق عشرات الكيلومترات من الطريق العام بين دنكرك ومانتون.

إنني أذكر جيداً كم كنت منزعجاً عام ١٩٦٣ م ، يوم قتل الرئيس الأميركي كينيدي، من مبادرة المجلس البلدي في اطلاق اسمه على رصيف باريس. لقد بدت لي هذه المبادرة قمة الطيش. فما هي الامتيازات التي كان الباريسيون يعرفونها له؟ لا شيء اللهم غير أنّه كان حازماً فيما يتعلق بقضية الصواريخ في كوبا. وهو شأن لا يتعلق بنا إلا من بعيد. هذا مع العلم أنّ سياسته كانت معادية لفرنسا وأنّه كان يعترض طريقها في مناسبات متعددة. الواقع أنّ السبب

الوحيد لإطلاق اسمه على شارع هام في باريس هو أنه مات مقتولا. وهذا يبدو لي شيئا غير ذي بال. فشيسترون أيضاً مات مقتولا ولا شارع له في العاصمة، والصحيح أنّ لويتس عام ٤٣ قبل الميلاد لم يكن لها مجلس بلدي.

والواقع أن باريس مملوءة بأسماء المجاهيل. فلولا أنني عثرت على بضعة سطور ساخرة في صحيفة "ليوتو" لبقيت أجهل شخصية (جان دولان) الذي ينتشر اسمه بين شارع "الصحة" وبين ضاحية سان جاك، ثم من هو (بيير مويار) الذي يمتد اسمه من شارع كاييتان فيريير حتى جادة مورتيا؟ ثم (جول بيشار) الذي يملك الطريق المرصوفة بالحصى الواقعة بين شارع الجنائين وشارع الطحانين؟ ومن هم (دوروشو/ القرن الرابع عشر) أو (جين جيباز/ القرن الخامس عشر) أو (جول كوزان/ القرن الرابع عشر)؟ ومن هما (اميل أكولاس) الذي يتمتع بظلال "سان دو مارس" الوارفة و(ريمون لوسيران) الذي يهيمن على منطقة واسعة من جادة دومين إلى جادة برون؟ ثم أخيراً من هم الخمسون أو المائة أو المائتان الآخرون غيرهم؟ إنه سرّ مغلق. قلت أنّ المسافة التي يشغلها اسم نابليون لا تقارب مسافة بول بيرت. وهناك مظالم أخرى. فإميل اوجييه مثلاً مؤلف كتاب "ختن السيد بوارييه" منتشر فوق جادة كاملة في الحي السادس عشر، بينما (ستاندال) لا يملك غير زقاق قائم خلف مقبرة شارون. كما فتح جزء ضئيل من الطريق العامة للرسام الكبير (أوجين دولاكروا) بينما (فلاندران)، المقلد التافه لأنغر، يشغل حيزاً كبيراً في قطاع رئيسي.

كل هذا شيء شاذ غريب، فالمجلس البلدي يجب أن يلحق بهيئته مسؤولاً بروتوكولياً من حجم الأموات من الناس بحيث يكون قادراً على تحديد شهرة الرجال الكبار بالأمتار المربعة المرصوفة في الشوارع.

أنا مستعد أن أكون رديفاً للاندرو لكي أفوز بمحطة مترو

إنّ الفوز بإسم شارع أمر ضائع المعالم والحدود. لكنّ هذا ليس غير الدرجة الأولى في تسلسل كبار الأموات. في الماضي قبل أن تترجم وحدات التليفون بالأرقام، كان من دواعي الأناقة والظرف أن يحظى أحدهم بإسم مقسم من المقاسم. ولكن المؤسف أنّ الأمر كان مجرد "يانصيب". هذا الحظ يصيب صاحبه على غير انتظار تبعاً للأحياء. على أنّ هذا لم يحل التليفون دون أن يحظى بمجد ثقافي من الطراز الأول رجال من أمثال دانتون، ليتري، كارنو

غوثيرغ ، ترودين ، ديدرو ، بلزك ، بوانكاريه، بوليتور. فالثقافة في الحقيقة لا تعني معرفة مؤلفات كبار الرجال أو أعمالهم، بل تعني سماع الحديث عنهم وحسب، فبلزك مثلاً لم يطلق اسمه على طائرة تقلع عامودياً إلا لأنّ هذا الاسم كان لمقسم تلفوني من قبل وليس لأنّ صاحبه قد أخرج كتابه العظيم " المهزلة البشرية " .

وفي عام ١٩٧٠ م شاعت في الصحافة أنباء سعيدة طيبة إحياء لذكرى اسكندر دوما، دون تحديد ما إذا كان دوما هذا هو الأب أو الابن، أو هو مؤلف " الفرسان الثلاثة " أو مؤلف " سيدة الكاميليا "، وقد أطلق اسمه على محطة مترو كانت تدعى من قبل " بانيولا " .

إنّ ضربة الحظ هذه شيء يحدث نادراً. هكذا دوما الأب والابن مختلطين، دخلا عالم البانتيون برفقة جول جوفران وميكال آنج، والماريشا دوروك، غامبتا، وباستور دولا مارك، وجان جوريس وغيرهم من الشخصيات الكبيرة.

في ضوء ما سبق ، أقول دون أدنى خجل أنني مستعد لكي يوضع اسمي على محطة مترو أن أكون رديفا للمدعو لاندرو.

والجدير بالذكر أنّ قاموس لاروس الصغير، وهو ميزان آخر للشهرة ، أكثر قدرة من مدينة باريس على وضع الناس في خانة المشاهير. فهو في كل فترة تمتد من ١٥ إلى ٢٠ سنة يخضع لعملية تطهير حازمة تحي بها أسماء مجاهيل من الماضي لتحلّ محلها أسماء مجاهيل للمستقبل ثم يصار إلى محو مجاهيل الغد لحساب مجاهيل ما بعد الغد. ذلك أنّ من الأسهل محو أسماء مطبوعة في كتاب من محو أسماء مكتوبة على ألواح من المينا الخزفي. من هنا ندرك سبب الخلود في محطات المترو، الخلود الذي يستحق كل مجهود ممكن. ولا عجب في ذلك فهو خلود عمره ثمانون عاماً حتى اليوم. وسيستمر هذا الخلود لمثل هذه الفترة في المستقبل. لقد اختفى اسم جون جوفران من القاموس لكنّ جول هذا لا يبالي بذلك فإنّ آلاف الأقدام تمر به في كل يوم يشهد حروف اسمه لامعة لمعان النجم المضيء .